عوامل الازهار الاقتصادي في بلاد ماوراء العصر السلجوقي

الباحث / جبريل محمد صالح
لدرجة الدكتوراه بقسم التاريخ

المقدمة

تميزت بلاد ماوراء النهر في عهد السلاجقة كغيرها من البلاد الإسلامية بوجود بعض انواع الصناعات والحرف إعتمادا على ماكان يستخرج من معادن من جبالها ورواسب أنهارها ومن منتجاتها الزرعية والحيوانية نتيجة لكثرة السهول الزراعية والمراعي الفسيحة التي تكثر بها المواشي من الأبقار والخيول وغيرها وقد راجت الصناعات الجلدية والوبرية المعتمدة على دباغة جلود الحيوانات ومن ثم تصنيعها بلإضافة صناعة المنسوجات وغيرها من الصناعات التي سوف تتضح فيما يلي:

صناعة المعادن

أزدهرت الصناعات المعدنية في بلاد ما وراء النهر نظراً لتوافر المواد الأولية في سهولها وجبالها، حيث يتوفر الذهب والفضة والأحجار الكريمة مثل الفيروز، واليـاقوت[1]، والزبرجد[2]، والزمرد[3]،

والحديد والنفط[4]، وقد تأثرت الصناعات المعدنية في بلاد ما وراء النهر بالفن الساساني على وجه الخصوص سواءٌ من حيث الشكل أو من حيث الزخارف إلا أن الفن في العصر الإسلامي تطور مع مرور الوقت وأصبحت له خصوبة تميزه عن غيره من فنون الأمم

---

[1] الياقوت: هو حجر صلب شديد اليبس رزين شفاف صافٍ مختلف الألوان منه الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق، وأصلها كلها الذي نمت منه الماء والتراب بقدر المكان الذي تولد فيه وبقدر ارتفاع حرارة الشمس وبقدر ما احتجبت عن الشمس، انظر أبو ريحان البيروني، محمد بن أحمد، الجماهر في معرفة الجواهر، القاهرة، د.ت، ص46، انظر محسن عقيل، موسوعة الأحجار الكريمة المصورة التختم النفوس الخواص، بيروت، 2007، ص593- 596.

[2] الزبرجد: وهو من الأحجار الكريمة بسبب ألوانه الجذابة وشفافيته والانعكاسات الضوئية التي تصدر عنه والتي تشبه عين الهر ويستخرج من نفس المنجم الذي يستخرج منه الزمرد، إلا أن تركيبته الجيولوجية هي السبب في اختلاف لون الحجر وقيمته؛ لأن الزبرجد يكون مائل للزرقة بتأثير معدن الحديد، انظر محسن عقيل، المرجع نفسه، ص400-401.

[3] الزمرد: كلمة معربة أصلها يوناني وتعني الحجر الأخضر المشرق، وهو أثمن الأحجار الكريمة بعد الماس، ويأتي في المرتبة بعد الياقوت، انظر أبو ريحان البيروني، الجماهر، ص168- 169.

[4] المقدسي، أحسن التقاسيم، ص325- 326، حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، بيروت ،1999 ج1، ص18.

السابقة[5]، ويعد العصر السلجوقي من أزهى العصور في صناعة التحف المعدنية[6]، بالإضافة إلى صناعة أدوات الحرب والأواني التي تستعمل في حياتهم اليومية[7]، وقد أبدع فنانو العصر السلجوقي في تزيين الأواني البرنزية والذهبية والفضية بزخارف وأشكال جديدة مبتكرة منها البارز ومنها المحفور[8]، كما زاول الحرفيون في العصر السلجوقي سبك البرنز لاستخدامه على هيئة تحف ذات زخارف بارزة كالمرايا وأشكال على هيئة حيوانات وتشتمل التحف المعدنية المصنوعة في العصر السلجوقي ذات الزخارف المنقوشة على أنواع مختلفة من الأواني مثل الأباريق والغلايات والمباخر[9]، وقد طور الحرفيون السلاجقة من إبداعاتهم فصنعوا تحف برنزية مكفتة بالماس والفضة وجدت إحداها بمتحق الهرميتاج (بروسيا) تعود صناعتها لسنة (551هـ/ 1107ك) وتتكون زخارفها من خمسة أشرطة أفقية يزين اثنان منها برسوم محاربين وصيادين ومناظر لاحتفالات سلجوقية. [10]، وبعض هذه التحف كانت على هيئة مقالم ومحابر معدنية ذات أشكال اسطوانية مزخرفة بالخط الكوفي، وهذه التحف صنعت في بلاد ما وراء النهر في القرن السادس الهجري[11]، ومن الشواهد على رقي الصناعات المعدنية في العصر السلجوقي أنه عثر على إناء برنزي صنع في إقليم الصغد وتعود صناعته إلى القرن الخامس الهجري في متحف الهرميتاج يبلغ ارتفاعه إحدى عشر سنتيمتراً وقطره اثنان وعشرون سنتيمتراً تتجلى فيه الصورة الإبداعية للفن السلجوقي[12].

كما أظهر الحرفيون في العصر السلجوقي إبداعاتهم في الصناعات النحاسية فصنعوا القدور والقماقم[13]، والتي اشتهرت بصناعتها مدينة سمرقند، كما اشتهرت سمرقند أيضاً بصناعة الدروع حتى أصبح الدرع السمرقندي مشهوراً في كافة أنحاء آسيا ولشهرته وصل إلى الصين

---

[5] زكي محمد حسن، الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي، القاهرة، 1940، ص242.

[6] م. س ديماند، الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، القاهرة، 1947، ص97.

[7] المقدسي، المصدر السابق، ص325.

[8] ديماند، الفنون الإسلامية، ص143.

[9] ديماند، المرجع نفسه، ص143- 146.

[10] زكي محمد حسن، الفنون الإيرانية، ص243، ديماند، المرجع نفسه، ص147.

[11] حصة صباح السالم الصباح، بدائع الفن الإسلامي في متحف الهرميتاج، الكويت، د.ت، ص54.

[12] حصة صباح السالم، المرجع نفسه، ص33.

[13] القماقم: مفردها قمقم وهو عبارة عن وعاء واسع من الأسفل ويضيق من أعلى توضع به السوائل، انظر الزبيدي، السيد محمد مرتضى، تاج العروس، بيروت، د.ت، ج4، ص12.

وأصبح المحاربون في الصين لا يستخدمون إلا الدرع السمرقندي[14]، ونظراً لتوفر خام الحديد في حوض نهر سيحون(Jaxartes) خاصة إقليم أشروسنة، فقد قامت عليه عدة صناعات منها صناعة الدروع والسيوف وغيرها من أدوات الحرب والتي شهدت إقبالاً في أسواق خراسان والعراق[15].

كما اشتهر إقليم فرغانة بهذه الصناعات، وقد أعانهم على ذلك وجود الفحم الحجري الذي يستخرج من جبالها وقد استعمل في صهر المعادن[16].

كما عرف عن أهل إقليم خوارزم إتقانهم في صناعة أدوات الحرب مثل السيوف والدروع والخناجر[17]أما مدينة بخارا فقد اشتهرت بصناعة الأواني الصفرية[18]،[19]، والطبر[20]،[21].

صناعة الذهب

تعد بلاد ما وراء النهر أغنى البلاد الإسلامية في استخراج بالذهب والأحجار الكريمة[22]، مما شجع على مزاولة حرفة الصياغة لاسيما وأن الأمراء السلاجقة كانت لهم عناية بالمظهر الجمالي لجواري القصور ولا يقتصر اقتناء الحلي على الجواري وإنما أقبلت عليه النساء من مختلف طبقات المجتمع[23]، ولكي تكون المجوهرات المصنوعة من الذهب أكثر متانة يضاف إليها نسبة من المعادن الأخرى كالنحاس والفضة أو النيكل، كما تصاف نسبة من النحاس أو الزنك أو الرصاص للمجوهرات المصنوعة من الفضة[24].

---

[14] المقدسي، أحسن التقاسيم، ص325، أيرين فرانك، طريق الحرير، ص255.

[15] ابن حوقل، صورة الأرض، ص416.

[16] ابن حوقل، المصدر نفسه، ص421، بارتولد، تركستان، ص366.

[17] المقدسي، أحسن التقاسيم، ص325.

[18] الصفرية: وتعني النحاسية حيث يطلق على صانع النحاس الأصفر (صفار)، انظر المعجم الوسيط، ص516.

[19] المقدسي، المصدر السابق، ص324.

[20] الطبر: سلاح حربي يشبه الفأس، أدلة العرب المسلمون كأداة من أدوات الحرب في العصر الإسلامي المتأخر، انظر عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص503.

[21] الزشخي، تاريخ بخارا، ص38.

[22] ابن حوقل، المصدر السابق، ص385، المقدسي، المصدر السابق، ص327.

[23] أبو الوفاء، محي الدين أبي محمد القرشي، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة، 1993، ج4، ص123، عمر رضا كحالة، أعلام النساء، بيروت، 1984، ج4، ص95.

[24] حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار الإسلامية، ج1، ص118.

كانت المصنوعات الذهبية السلجوقية ذات قيمة عالية وهي في الغالب عبارة عن أصناف من الحلي تتزين بها النساء مثل الأقراط والدلايات صنع بعضها على هيئة حيوانات أو طيور أما الأقراط فكانت في الغالب على شكل هلال تزينه زخارف مفرغة على هيئة طيور تفصلها عن بعضها شجرة نخيل[25]، وكذلك أساور مزينة بزخارف وبأساليب متنوعة مثل الحفر والتخريم والتمويه بالمينا والترصيع بالأحجار الكريمة كالياقوت الزبرجد الزمرد ونظراً لرواج المجوهرات وإقبال النساء عليها فقد أقيمت لها أسواق خاصة في معظم بلاد ما وراء النهر[26]. مثل سوق الصاغة في بخارا، حيث تصنع وتسوق في السوق نفسه[27].

صناعة المينا

عرف الفنانون السلاجقة أشغال المينا[28]، وقد تميزت بصناعتهم عن صناعة العصور الإسلامية السابقة لعصرهم في صناعة المينا، وهي عبارة عن مادة متعددة الألوان تزين بها التحف المعدنية التي صنعت على هيئة صور آدمية ورسوم لحيوانات محفورة داخل جامات يفصل بعضها عن بعض رسومات لأشجار النخيل وصور لراقصات[29].

صناعة الزجاج

يصنع الزجاج من صنف معين من حجر المروة أو الزنود المتوفر في بلاد ما وراء النهر كما يصنع من الرمل بعدما توقد عليه النار لمدة أيامٍ[30]، وكانت صناعته من الحرف التي كان يمارسها السكان في بلاد ما وراء النهر لتوفر المادة الأولية لصناعته، وهي نوعية معينة

---

[25] ديماند، الفنون الإسلامية، ص143- 144.

[26] حسن الباشا، المرجع السابق، ط1، ص118.

[27] الزشخي، تاريخ بخارا، ص38-41، الحديثي، أسواق المدن الخراسانية، ص118.

[28] المينا: وهو نوع من الزجاج ولكنه أرخى وأثقل يتكون من خليط يسميه مزالوه (أصلاً) فمنهم من يركبه من المروة وهي أحجار بيضاء شديدة البياض وإذا لم تتوفر يستعمل بدلاً منها أحجار الزنود والتي تستعمل بعد سحقها ويحصل منها على الزجاجية كما يحصل على الزجاج من الرمل، ومن أشغال المينا هي مليء التجاويف في المشغولات المعدنية مثل الذهب أو الفضة أو النحاس بعجينة من الزجاج الملون بالأكاسيد ثم تصقل هذه العجينة بعد صبها ويلاحظ أن سطح المينا يكون غبشاً إذا صب على الترس أو الحديد وشفاف إذا صب على سطح من الذهب أو الفضة، انظر محسن عقل، موسوعة الأحجار الكريمة المصورة، بيروت، 2009، ص579، انظر محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، الإسكندرية، 1998، ص193.

[29] ديماند، الفنون الإسلامية، ص143.

[30] أبو ريحان البيروني، الجماهر، ص222.

من الطين تجلب من جبال كوهك القريبة من مدينة سمرقند مما جعلها أشهر مدن بلاد ما وراء النهر في صناعة الزجاج[31].

وقد شهدت صناعة الزجاج تطوراً في العصر السلجوقي حيث أضاف إليه حرفيّو هذا العصر نماذج لم تكن معروفة في المشرق الإسلامي مثل الزجاج الأبيض المضغوط الذي قلدوا به البلور الصخري الذي كان يصنع في مصر في العصر الفاطمي[32]، وقد استعمل الزجاج في صناعة الاحتياجات المعيشية مثل الصحون والأباريق[33]، والقنينات وفي صناعة مشكاة الإنارة[34]، والكؤوس والأكواب [35]، وقد اتخذت الأواني الزجاجية أشكالاً متعددة منها المسطح والمضلع والكروي والكمثري[36]، وزينت هذه الصناعات بزخارف فنية رائعة ميزت الفن السلجوقي[37]، وقد استخدمت أساليب متعددة للزخرفة منها استعمال القالب والختم والملقاط وكذلك الزخرفة وبالأقراص والخيوط المضافة والحفر والقطع والبريق المعدني والتذهيب والتمويه بالمينا[38].

كما زينت التحف الزجاجية بالأسلاك الملفوفة وبالأشكال الهندسية والفروع النباتية[39]، وتلون المصنوعات الزجاجية بألوان عدة وذلك بإضافة أكسيد بنسب معينة قبل الصهر إلا أن الزجاج الشفاف كان أكثر استعمالاً[40]، فكان الصينيون يجلبون الزجاج خاصةً الملون من إقليم الصغد إلى أن تعلموا سر صناعته منهم في القرن الخامس الميلادي[41].

---

[31] الأصطخري، مسالك الممالك، ص318- 319، ابن حوقل، صورة الأرض، ص407، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص494، البلخي، محمد بن سهل، صورة الأرض مخطوط بمعهد المخطوطات العربية القاهرة، ص139.

[32] حسن محمد زكي، الفنون الإيرانية، ص262.

[33] حسن محمد زكي، المرجع نفسه، ص263.

[34] رأفت رضا أحمد حسنين، الحياة الثقافية في إقليم الصغد منذ قيام الدولة السلجوقية حتى الغزو المغولي، القاهرة، 2007، ص277.

[35] حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، ج1، ص112.

[36] حسن الباشا، المرجع نفسه، ج1، ص112.

[37] حسن محمد زكي، المرجع السابق، ص262.

[38] حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، ج1، ص112.

[39] حسن محمد زكي، الفنون الإيرانية، ص262.

[40] Charles. K. Wilkinson, Nishapur. Pottery of the Early Islamic perio D. New York. 1897, p259.

[41] إيرين فرانك، طريق الحرير، ص255.

صناعة النسيج

وتعد صناعة النسيج من الصناعات الرائجة في بلاد ما وراء النهر نتيجة لتوفر المادة الأولية (القطن – الصوف– الوبر– الشعر والحرير)[42]، ووفرة الأيدي العاملة المهرة والمتخصصة في كافة المجالات[43]، وبالإضافة إلى ذلك فقد حرص السلاطين السلاجقة على تشجيع الحرفيين حيث ألغى السلطان ملكشاة المكوس التي كانت مفروضة على التجار[44]، والتي كانت هيّنة في الأساس[45]، ولاشك فإن هذه الخطوة ساهمت في رواج الإنتاج الصناعي ومن الصناعات التي اشتهرت بها بلاد ما وراء النهر صناعة النسيج فقد امتلك الأهالي معاول خاصة لصناعة النسيج، فكانت النساء في إقليم خوارزم يعملن بالصناعات اليدوية، كالخياطة والتطريز وغيرها من الأعمال اليدوية الدقيقة التي وجدت رواجاً في الأسواق[46]، كما توجد مصانع للنسيج تحت إشراف الدولة وتسمى آنذاك دور الطراز منها ما يختص بصناعة ملابس السلاطين ورجال الدولة ومصانع أخرى تختص بصناعة ملابس العامة[47]، وتنتج هذه المصانع أنواعاً مختلفة من الملابس أشهرها الملابس القطنية نظراً لوفرة إنتاجه في بلاد ما وراء النهر[48]، تتعدد الصناعات القطنية في بلاد ما وراء النهر مثل الأوشحة والثياب والبسط [49]، وقد اشتهرت مدينة بخارا و سمرقند بأجود أنواع القطن وتنتشر زراعته في كل من زندنة[50]، وسكجكث[51]، وشرغ[52]، وكذلك في بنكث قصبة إقليم الشاش وغيرها

(42) الأصطخري، مسالك الممالك، ص288، ابن حوقل، صورة الأرض، ص285، الحميري، الروض المعطار، ص326.

(43) النرشخي، تاريخ بخارا، ص288، سالي بدر الأسدي، الصلات العلمية، ص73، إيمان محمد زكي، التجارة في خراسان خلال العصر السلجوقي، دورية جامعة عين شمس، مجلد 29، عن شهر أكتوبر وديسمبر، 2011، ص310.

(44) الراوندي، راحة الصدور، ص205، عبد الله عطية عبد الحافظ، الآثار والفنون الإسلامية، القاهرة، 2005، ص126.

(45) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص340.

(46) القزويني، آثار البلاد، ص349.

(47) مرفت رضا أحمد، الحياة الثقافية في إقليم الصغد ، ص273.

(48) ابن حوقل، صورة الأرض، ص385، محمد جمال الدين سرور، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، القاهرة، 1989، ص95.

(49) الاصطخري، مسالك الممالك، ص322- 326.

(50) زندنة: قرية من قرى مدينة بخارا تبعد عنها أربعة فراسخ تنسب إليها الثياب الرندنية، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص154.

(51) سكجكث: إحدى قرى مدينة بخارا، انظر ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج3، ص230.

من مدن بلاد ما وراء النهر وكان أهالي بلاد ما وراء النهر يعتمدون على القطن في صناعة أنواع متعددة من الملابس أهمها صناعة الكرباس[53]، والذي اشتهرت بصناعته مدينة سمرقند [54]، كما اشتهرت سمرقند بالثياب الوذارية[55]، المصنوعة من القطن[56].

كما اشتهرت بلدة ربيخن[57]، بصناعة أُرز الشتاء[58]، والتي تضع من اللبود الأحمر[59]،وكانت مدينة بخارا من أشهر مدن بلاد ما وراء النهر في صناعة النسيج القطني، فقد اشتهرت في صناعة الكرباس الزندي الذي فاقت شهرته الآفاق، كما كان يصنع بها أنواع متعددة من المنسوجات مثل البسط[60]، والمصليات وحزم الخيل وأنواع أخرى من الثياب الرخوة والتي تسمى الأشموني[61]، فكانت تمتاز بجودة صناعتها[62].

وقد اشتهرت مدنية الطواويس[63]، بصناعة الثياب القطنية الفاخرة، والذي يغطي إنتاجها احتياجات السوق المحلي ويصدر فائض إنتاجها إلى البلاد المجاورة خاصةً إقليم

---

[52] شرغ: وهي إحدى قرى بخارا ينسب إليها الكثير من أهل العلم، منهم انظر محمد بن إبراهيم بن صابر الشرغي، ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج3، ص334- 335.

[53] ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص125.

[54] الوذارية: نسبة إلى بلدة ويذار التي صنعت بها هذه الثياب وتبعد عن سمرقند بمسافة فرسخين ويصنع هذا النوع من الثياب من القطن وتلبس خاماً غير مقصورة. ، انظر الإدريسي، نزهة المشتاق، ص501، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص369.

[55] زكريا كتابتجي، الترك في مؤلفات الجاحظ، ص254.

[56] الكرباس: وهو الثوب المصنوع من القطن، انظر رجب عبد الجواد إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، القاهرة، 2002، ص418، انظر الجواليقي، أبي منصور، المعرب من الكلام الأعجمي، دمشق، 1990، ص556-557.

[57] ربيجن: وردت باسم ربنجن وهي بليدة صغيرة في ضواحي سمرقند، انظر ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج3، ص26.

[58] أرز: أرز هو الرداء الواسع الذي تلف به النساء ويعني أيضاً الثوب الواسع، انظر رينهارت دوزي، اللسان العربي، مجلة دورية للأبحاث اللغوية ونشاط الترجمة والتعريب، ترجمة أكرم فاضل، الرباط، المجلد 8-9-10، الجزء 2-3، بغداد، د.ت، ص37.

[59] المقدسي، أحسن التقاسيم، ص324.

[60] الأصطخري، مسالك الممالك، ص378- 379، المقدسي، أحسن التقاسم، ص322، البلخي، صورة الإقليم، ورقة 137.

[61] الأشموني، نسبة إلى بلدة أشمونين بصعيد مصر وهذا يدل على التأثير المتبادل بين مصر وبلاد ما وراء النهر، في مجال الصناعة، انظر الاصطخري، المصدر السابق، ص53، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج3، ص153.

[62] المقدسي، المصدر السابق، ص326.

[63] الطواويس، اسم ناحية من أعمال نجارا تقع بينها وبين سمرقند، انظر ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج4، ص46.

خراسان[64]، ويعد الثوب الزندنجي[65]، من أجود الأنواع التي اشتهرت بها مدينة بخارا بالإضافة إلى أنواعاً أخرى من القماش الفاخر والذي يسمى باليزديات وكان فائض إنتاجه يصدر إلى بلاد الشام وبلاد الروم[66].

أما إقليم خوارزم فقد اشتهر بصناعة القلانس[67]، وأنواع أخرى من النسيج تسمى الديبقي[68]، وكذلك الثياب الأشمونية الفاخرة وأنواع من ثياب اللحف وديباج بيشكس وثياب الأرنج[69]، والأُرز المصنوعة من الصوف وأنواع عديدة من الثياب المطرزة[70].

وقد اشتهر إقليم الشاش بصناعة المنسوجات القطنية والصوفية كالثياب وغيرها من المنسوجات و كانت الثياب تصنع في إقليم الشاش على الطراز التركستاني كغيرها من أقاليم بلاد ما وراء النهر، كما تصنع بها القلانس والكرابيس الكندجية والأرز المصليات حيث كانت مدينة اسبيجاب من أشهر مدنها في صناعة الكرباس[71]، أما إقليم فرغانة فقد اشتهر بصناعة الثياب ذات البياض الناصع لوجود نوع من الحجارة تحرق ويستعمل رمادها في تبييض الثياب وهو ما أكسبها شهرةً فاقت الآفاق وقد تميزت مدينة وتسخان بصناعة أجود أنواع الكرباس [72].

كما تميز إقليم أشروسنة بصناعة الأقبية[73]، التي تصنع من الصوف والشعر وينتج الإقليم كميات كبيرة من اللبود يصدر الفائض من إنتاجه إلى البلاد المجاورة وكانت مدينة ديزك من

---

[64] الاصطخري، مسالك الممالك، ص313.

[65] الزندنجي: ينسب هذا النوع من الثياب إلى قرية زندنة إحدى قرى مدينة بخارا، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص154.

[66] الزشخي، تاريخ بخارا، ص39.

[67] القلانس: جمع قلنسوة وهي غطاء الرأس، انظر رجب عبد الجواد، المعجم العربي لأسماء الملابس، ص402.

[68] الديبقي: نسبة إلى بلدة دبيق بمصر بالقرب من تنيس، ربما لقدوم حرفيين من هذه البلدة إلى خوارزم فنسب لهم هذا النوع من النسيج، انظر ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج2، ص437.

[69] الأرنج: ثياب مصنوعة من القطن، انظر الثعالبي، لطائف المعارف، ص129.

[70] الاصطخري، المصدر السابق، ص304-305، ابن حوقل، صورة الأرض، ص397، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص325.

[71] الاصطخري، المصدر السابق، ص334، ابن حوقل، المصدر نفسه، ص421- 422، المقدسي، المصدر نفسه، ص325- 272.

[72] المقدسي، المصدر نفسه، ص325- 271.

[73] الأقبية: مفردها قباء وهو الثوب المفتوح من الأمام ويصنع من الصوف أو الشعر، انظر رجب عبد الجواد، المعجم العربي لأسماء الملابس، ص378.

أشهر مدن الإقليم إنتاجاً له[74]، وقد شجع على رواج هذه الصناعة كثرة اقتناء الضأن والماعز والأبقار في مراعيها الحسنة[75].

صناعة الحرير

ظلت صناعة الحرير حكراً على الصينيين لقرون وجعلوا صناعته سراً غامضاً إلى أن تسرب صناعته خارج حدود بلاد الصين بعدما تحصل الفرس عن طريق الرشوة على بعض ديدان دودة القز[76]، وطريقة تربيتها واستخراج خيوط الحرير منها[77]، وقد وطنت صناعة الحرير في بلاد ما وراء النهر وتفننوا في استخراج خيوط الحرير وطرق نسجها وصنعوا منه ثياباً فاخرة تميزت بالجودة والجمال، وقد تميزت مدينة سمرقند بصناعة المنسوجات الحريرية والديباج، أشهرها ثياب السيمكون والثياب الممرجلة[78]، ذات الألوان الزاهية والمزينة برسومات على هيئة النسور ذات الرأسين والطاؤوس[79]، كما اشتهر إقليم خوارزم بصناعة المنسوجات الحريرية مثل صناعة التوزة[80]، الذي نالت بصناعته شهرة في أسواق بلاد ما وراء النهر والبلاد المجاورة[81]، كما تميزت مدينة بخارا بمنسوجات الحرير والديباج[82].

الصناعات الجلدية

شهدت الصناعات الجلدية رواجاً في مدن بلاد ما وراء النهر لجودتها وغزارة إنتاجها من أهمها مدينة بخارا التي اشتهرت بصناعة الفرو المصنوع من جلود الحملان وتتم معالجته حتى يبقى الصوف في الجلد ونظراً لنعومة صوف الحملان فقد ورد وصفها عند بعض

---

(74) عبد الله علي نوح، الأحوال الحضارية في إقليم أشروسنة من الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة السامانية، القاهرة، 2013، ص103.

(75) لسترنج، بلدان الخلافة السرقية، ص509.

(76) القز: يسمى الحرير قبل غزله وإذا غزل سمى إبريسم، انظر رجب عبد الجواد إبراهيم، المرجع السابق، ص389.

(77) بارتولد، تركستان، ص104، محمد علي مادون، تفاعلات على طريق الحرير تدمر، دمشق، 1995، ص38.

(78) الممرجل: وهو ضرب من الثياب الحرير المطرزة بالرسومات، انظر رجب عبد الجواد، المرجع السابق، ص464، المعجم الوسيط، ص1036.

(79) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص325، بارتولد، المرجع السابق، ص365، رجب عبد الجواد إبراهيم، المرجع السابق، ص97.

(80) التوزة نوع من الملابس الحريرية صنعت في خوارزم ونسبت إلى بلده توّز ببلاد فارس قريبة من كازرون وعوام العجم تقول عنها توّز بفتح التاء تعرف أيضاً عند بعضهم بتوّج وقد اشتهرت بصناعته الثياب الحريرية الجيدة انظر، تاج العروس، ج4، ص12، رجب عبد الجواد إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، ص97، ص98.

(81) ابن حوقل، صورة الأرض، ص397- 398.

(82) الأصطخري، مسالك الممالك، ص378، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص322.

الرحالة[83]، بالفرو بينما ورد في موضع آخر بأن الفرو يؤخذ من السنجاب والثعالب، كما استعملت الجلود للكتابة عليها بما يعرف بجلد الرق[84]، بالإضافة إلى استعمالها في صناعة السيور وحزم الخيل والأحذية وغيرها من الصناعات الجلدية[85]، كما اشتهرت مدينة سمرقند بدبغ الجلود بطريقة مميزة حتى إنها كانت تستعمل أيضاً في الكتابة لنعومتها[86].

بالإضافة إلى صناعة السيور السميكة التي تستعمل لشد الركب[87]، والحكّمات، وقد تميز إقليم الشاش بالصناعات الجلدية مثل سروج الكميخت[88]، والحجاب[89]، والسيور وكان أهالي الإقليم يجلبون احتياجاتهم من الجلود لاستعمالها في الصناعات الجلدية من القبائل التركية، التي تقيم على حدود الإقليم[90].

وتعد الصناعات الجلدية من أهم الحرف التي كان يمارسها أهالي بلاد ما وراء النهر نظراً لتوفر الثروة الحيوانية، إلا أن بعض الأقاليم كانت متميزة عن غيرها من أقاليم بلاد ما وراء النهر في جودة منتج معين من الصناعات الجلدية فقد تميز أهالي إقليم أشروسنة بصناعة الأحذية الفاخرة ودبغ الجلود[91]، وكذلك أهالي إقليم خوارزم، حيث كانت الصناعات الجلدية من الحرف الأساسية التي كان يمارسها أهالي الإقليم مثل دبغ جلود الأغنام والماعز والأرانب وجلود الحمر الوحشية[92]والثعالب الحمراء أو السوداء واستعمال هذه الجلود في صناعة الأحذية و السيور الفاخرة وغيرها من الصناعات الجلدية[93]، وتصدر الفائض من

(83) الأصطخري، المصدر نفسه، ص379، ابن حوقل صورة الأرض، ص398.

(84) الرق: وهو الجلد الرقيق الذي يكتب عليه، انظر محمد عمارة، قاموس المصطلحات الاقتصادية، ص255.

(85) المقدسي، أحسن التقاسيم ،ص325.

(86) زكريا كتابتجي، الترك في مؤلفات الجاحظ، ص254، ص255.

(87) الركب: جمع ركاب وهو السرج الذي يستعمله الفارس للركوب على ظهر الجواد، انظر ابن منظور، لسان العرب، ح5، ص260.

(88) الكميخت: وهي جلود الدواب، انظر ابن منظور، المصدر السابق، ج1، ص448.

(89) الحجاب، مفردها حجب وهو كنانة النشاب، انظر ابن منظور، المصدر نفسه، ج1، ص267.

(90) المقدسي، أحسن التقاسم، ص325.

(91) عبد الله علي نوح، الأحوال الحضارية في إقليم أشروسنة، ص103.

(92) الأصطخري، مسالك الممالك، ص304- 305، ابن حوقل، صورة الأرض، ص398، المقدسي، المصدر السابق، ص325، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص502.

(93) المقدسي، المصدر نفسه، ص325، لسترنج، المرجع نفسه، ص502، ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، ص85.

الجلود إلى الأقاليم المجاورة[94]، كما استعمل أهالي إقليم خوارزم جلود الإبل والأبقار في حفظ البضائع والمقتنيات عند عبور الأنهار[95]،ولشدة البرد كانت الجباب[96]، تكسى بالبوستيات[97]، المصنوعة من جلود الغنم لئلا تنشق وتنكسر[98].

الصناعات الخشبية

وتعد الصناعات الخشبية من أهم الحرف التي مارسها أهالي بلاد ما وراء النهر نظراً لكثرة الغابات خاصةً أشجار الخلاف التي تكثر في إقليمي خوارزم والصغد والتي تعد من أهم مصادر الأخشاب[99]، وقد تعددت استخداماتها فقد استخدمها الأهالي في بناء أسقف بيوتهم[100]، وفي بناء القناطر وكذلك في بناء السفن[101]، وفي صناعة أدوات الحرب مثل القسي والنشاب[102]،والأواني التي يستعملونها في حياتهم اليومية[103]، وقد أبدعوا في صناعة التحف الخشبية الرائعة ذات الزخارف الهندسية المحفورة والمخرقة على هيئة أطباق نجمية وكذلك في تزيين الأبواب الخشبية بالنحت البارز على هيئة زخارف نباتية ورسوم محورة لأسود وعقبان وطواويس[104]، وهذه الأعمال الفنية الرائعة تميز بها العصر السلجوقي[105]، بالرغم من انحدار السلاجقة من أصول قبيلية ، إلا أنهم بعدما أقاموا دولتهم

---

[94] المقدسي، المصدر نفسه، ص325.

[95] اليعقوبي، البلدان، ص278، ابن فضلان، المصدر نفسه، ص86.

[96] الجباب، جمع جبة هي ثوب مفتوح من الأمام يلبس فوق الملابس وعادة تلبس في الشتاء لأنها مبطنة بالفرو وتصنع الجبة الخراسانية من الصوف الأسمر الضارب إلى الحمرة وكذلك من وبر الإبل، انظر رجب عبد الجواد المعجم العربي لأسماء الملابس، ص105، رينهارت دوزي، اللسان العربي، ص20.

[97] البوستيات جمع بوستين، وتعني الجلد الغليظ، انظر رينهارت دوزي، المرجع نفسه، ص11.

[98] ابن فضلان، المصدر السابق، ص85.

[99] ابن حوقل، صورة الأرض، ص407، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص396، حنان مبروك اللبودي، التاريخ الحضاري لبلاد خوارزم، ص51.

[100] ابن حوقل، المصدر نفسه، ص407، ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج2، ص396.

[101] المقدسي، أحسن التقاسيم، ص325، قحطان عبد الستار الحديثي، أرباع خراسان الشهيرة، البصرة، 1990، ص509.

[102] المقدسي، المصدر نفسه، ص325، الثعالبي، لطائف المعارف، ص129، بدر عبد الرحمن محمد، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي ، ص279.

[103] المقدسي، المصدر السابق، ص324- 325.

[104] ديماند، الفنون الإسلامية، ص125.

[105] ديماند، المرجع نفسه، ص125، زكي محمد حسن، الفنون الإيرانية، ص267، نعمت إسماعيل علام، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، ط6، دار المعارف القاهرة، 1972، ص169.

وخضعت لهم شعوب سبقتهم في مضمار الحضارة فاكتسبوا خبراتهم وشجعوهم على تطوير إنتاجهم الفني فأصبحت فنون ذلك العصر تحمل الطابع السلجوقي الخالص[106].

صناعة الخزف

عرف أهالي بلاد ما وراء النهر صناعة الخرف قبل ظهور السلاجقة، إلا أن صناعته في العصر السلجوقي تعد مرحلة من مراحل التطور في مجال صناعة الخزف والتي كانت موجودة في الفن الإسلامي وقد ساهم في شهرة بلاد ما وراء النهر في هذه الصناعة توفر المواد الخام وهو الطين الذي يجلب من جبال وركة القريبة من مدينة بخارا[107]، كما يجلب من جبال كوهك القريبة من مدينة سمرقند[108].

وقد تأثرت صناعته بالخزف الصيني ويعود ذلك لإقامة بعض صناع الخزف الصينيين في مدن بلاد ما وراء النهر منها مدينة سمرقند باعتبارها إحدى المراكز التجارية[109]، وكذلك لعبور تجار الصين وعرض إنتاجهم الخزفي في المراكز التجارية لبلاد ما وراء النهر مثل بخارا وسمرقند وبنجكت وبنكث [110].

كانت صناعة الخزف في بلاد ما وراء النهر قديماً يرجح بأن مركزها كان بإقليم الشاش، وما يميز صناعته عن صناعة الخزف الإيراني زخارفه التي كانت ترسم على أرضية سوداء وعليها زخارف يظهر فيها اللون الأحمر بوضوح[111]، وقوام هذه الزخارف رسوم نباتية ومراوح على شكل فروع النخيل وتمتاز هذه الزخارف بدورانها حول مركز واحد مما يكسبها شيئاً من الحركة والخفة[112].

---

[106] عبد الله عطية عبد الحافظ، الآثار والفنون الإسلامية، ص128.

[107] الأصطخري، مسالك الممالك، ص312، ابن حوقل، صورة الأرض، ص402، الإدريسي، نزهة المشتاق، ص495.

[108] الاصطخري، المصدر نفسه، ص318- 319، ابن حوقل، المصدر نفسه، ص407.

[109] نعمت إبراهيم علام، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، ص144-145.

Bretsc Hnider. M.D. media eral Researches from Eastern Elsiatic souress. London, 1948, 1, p78.

[110] محمد عبد العظيم أبو النصر، مراكز التجارة في آسيا الوسطى، ص354- 356.

[111] زكي محمد حسن، الفنون الإيرانية، ص167.

[112] زكي محمد حسن، المرجع نفسه، ص167.

ونظراً لاهتمام السلاجقة بالجانب الاقتصادي فقد سعوا إلى تطوير كافة الصناعات بما فيها صناعة الخزف لكي ينافس الخزف الصيني الذي ذاعت شهرته في أسواق العالم الإسلامي، لذا فقد ابتكر الخزافون خلال هذا العصر أروع أنواع الخزف حتى أصبح الخزف السلجوقي لا يقل أهمية عن الخزف الصيني[113]، ومن ضمن هذه الأنواع الخزف المينائي أو الخزف المرسوم فوق الطلاء متعدد الألوان، وهذا النوع من ابتكار خزافي العصر السلجوقي[114]، كما طور صناع الخزف في هذا العصر الخزف ذى البريق المعدني وكانت الألوان الشائعة في الأواني الخزفية المصنوعة منه الذهبي والمائل والداكن والمائل إلى الحمرة مع طبقة طلاء بيضاء وأحياناً كان لون الطلاء الأزرق الزهري والفيروزي ويحتوي هذا النوع من الخزف على رسومات آدمية[115]، وكذلك صور لمراوح على هيئة فروع شجرة النخيل ورسومات لأغصان العنب الملتوية وكانت هذه الزخارف موجودة في الفن الإسلامي قبل ظهور السلاجقة إلا أن صناع الخزف في العصر السلجوقي طوروا في طريقة الرسم على الأواني الخزفية وبعثوا في هذه الرسومات الحياة والحركة فأصبحت نصف المروحة النخلية نصف ورقة أرابيسك مبالغ في رسمها وكذلك رسم ورق العنب في مجموعات مكونة زهرة تشبه في شكلها المروحة النخلية الكاملة[116].

صناعة الزيوت والعطو

تكثر النباتات العطرية العطرية في بلاد ما وراء النهر مثل أزهار البنفسج والنيلوفر والنرجس والكاردة والزنبق والعود والنارنج[117]، وغيرها من النباتات العطرية التي قامت عليها الصناعات العطرية ويعد الزيت مادة أساسية في صناعة العطور حيث يتم استخلاصه عن طريق طحن الحبوب الغنية بالزيت مثل السمسم والزيتون ونوى المشمش بعد عملية الطحن يضغط المعجون بين فكي الرحى لكي يفصل الزيت عن القشور[118]، وقد اشتهر إقليم

[113] عبد الله عطية عبد الحافظ، الآثار والفنون الإسلامية، ص167.

[114] عبد الله عطية عبد الحافظ، المرجع نفسه، ص165.

[115] آلان كايفر سميث، الفخاريات ذات البريق المعدني، ترجمة أمين الأيوبي، أبو ظبي، 2011، ص76.

[116] سعاد ماهر، الخزف التركي، القاهرة، 1960، ص17.

[117] المقدسي، أحسن التقاسيم، ص443.

[118] عبد الجبار حامد أحمد وزينب سالم صالح، صناعة العطور في العصر العباسي، مجلة التربية والعلوم، المجلد التاسع عشر، العدد الثالث، جامعة الموصل، 2012، ص7-8.

خوارزم بإنتاج زيت السمسم نظراً لوفرة إنتاجه فكان فائض من إنتاجه يصدر إلى البلاد المجاورة[119]، وبالإضافة إلى استعمال زيت السمسم في الصناعات العطرية فإن الأهالي يستعملونه في غذائهم[120].

أما عن طريقة صناعة العطور فتتم بطريقة تجفيف الأزهار بطرحها تحت أشعة الشمس حتى تجف ثم تنقع في الماء لمدة أثنتي عشرة ساعة وبعد ذلك يضاف إليها زيت السمسم ويغلى المخلوط حتى يتبخر الماء ويبقى الدهن العطري[121]، أما الطريقة الثانية تتم عن طريق وضع مسحوق الأزهار في إناء ويسكب عليه الزيت ثم يغلى أو يترك تحت أشعة الشمس حتى يعبق الدهن برائحة الأزهار، ثم تتم تصفيته[122]، ومن ثم يوضع في قوارير للعرض في الأسواق[123]، وقد اشتهرت مدينة بخارا بصناعة العطور حتى إن أحد أبوابها كان يسمى بباب العطارين[124]،

صناعة الكاغد

انتقلت صناعة الكاغد إلى بلاد ما وراء النهر عن طريق الصينيين[125]، والكاغد هو الورق الذي يعد للكتابة سماه العرب بهذه التسمية تتميز له عن الورق المصري الذي عرف آنذاك بالقرطاس[126].

وكان الصينيون يتخذون الحرير كمادة أولية في صناعة الكاغد فأضاف إليه أهل بلاد ما وراء النهر إبداعاتهم فصنعوه من القطن[127]، وقد اشتهرت مدينة سمرقند بصناعته نظراً

---

[119] لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص502.

[120] عبد الجبار حامد أحمد وزينب سالم صالح، صناعة العطور في العصر العباسي، ص7.

[121] الأزرق، الإبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر، تسهيل المنافع في الطب والحكمة، القاهرة، 1310هـ، ص38.

[122] النويري، شهاب الدين أحمد، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قميحة، بيروت، 2004، ج12، ص74، شيخ الربوة، شمس الدين ابن عبد الله محمد، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بطربورع، 1865م، ص197.

[123] الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت ،2003 ص246.

[124] الزشخي، تاريخ بخارا، ص84.

[125] عرف أهالي بلاد ما وراء النهر صناعة الكاغد بعدما وقع سبي من بلاد الصين في يد القائد زياد بن صالح في مواجهة معهم على الحدود الشرقية للدولة الإسلامية في موقعة أطلح سنة (133هـ/ 751م) وكان من بين هؤلاء السبي من يجيد صناعة الكاغد فأجبرهم على ممارسة المهنة حتى يستفاد من خبراتهم المسلمين، انظر الثعالبي، ثمار القلوب، ص431، 1976، ص243، انظر هالة شاكر عبد الرحمن، الورق والوراقون في العصر العباسي، القاهرة، 2004، ص170.

[126] عصام سليمان موسى، الورق وتطور صناعته في العصر العباسي، مجلة جامعة دمشق، المجلد الثاني والعشرون، العدد الثالث، 2011، ص227.

لوفرة إنتاجها من القطن ولموقعها التجاري المميز[128]، وكانت شهرة الكاغد السمرقندي قد فاقت الآفاق حتى طغت على صناعة الكاغد الصيني وذلك لقلة تكلفة صناعته وجودته حيث يتميز بنعومته وسهولة استعماله[129]، وقد حل الكاغد السمرقندي محل ورق البردي[130]، والرق كمادة للكتابة في الدولة الإسلامية[131]، وظلت سمرقند تحتكر صناعة الكاغد حتى نهاية القرن الثالث الهجري[132]، حيث انتقلت صناعته إلى عدة مدن إسلاميه وبرغم ذلك ظلت سمرقند أشهر مراكز إنتاجه في الدولة الإسلامية[133].

[127] محمد مجيب المصري، الصلات بين العرب والفرس والترك، ص284.

[128] محمد عبد العظيم أبو النصر، مراكز التجارة في اسيا الوسطى، ص334- 335.

[129] الثعالبي، لطائف المعارف، ص126، آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص365.

[130] البردي: نبات مائي من الفصيلة السعدية ينمو بكثرة بأعالي النيل صنع منه المصريون القدماء ورق البردي، انظر مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص48.

[131] الثعالبي، ثمار القلوب، ص542، سالي علي بدر الأسدي، الصلات العلمية بين مدينة دمشق، ومدن بلاد ما وراء النهر، ص367.

[132] آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص308- 309.

[133] ناصر خسرو، سفر نامة، القاهرة، 1993، ص58، آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص366- 367.